سوريا ولبنان في نظر الغرب

خلاصة لاشهر الكتب الفرنسية

رواد الشرق

هذا هو كتاب بوردو الثاني في مجلدين ضخمين . رائع قيم . لم يقم قبلهُ بمثله أحد . لقد اودعهُ ذكر اهم الاهم من الذين زاروا سوريا منذ عهد الصليبية الى يومنا هذا . ففي المجلد الاول يحدثنا عن الحجاج الى الاراضي المقدسة قبل الصليبية كوالد وليم النورماندي، الملقب بالفاتح . والذي مات وهو في طريق رجوعه . يحدثنا عن كبار افراد الصليبيين . عن بوهيمند الثاني . عن ريمون دا كنان، وريتو دي شاتيلون ، وجود فروى دي بويون وغيرهم من كبار وعظماء . ولا يحدثنا فقط عنهم بل عن صلاح الدين ايضاً . عن اشياء يجهلها اكثرنا اتم الجهل . يحدثنا عن اسبلاء الصليبيين على اكثر انحاء سوريا ثم انسحابهم منها. ولا يقف عند ذلك . بل يتلوه بحث مستفيض مملوء لذة وفائدة . عمن تلاهم من العظماء ، كنابليون وشاتوبريان ووليم ري ، ودي فوجيه . والبرنسيس دي بلجيوزو ، واللادي استر ستانهوب، وريتان وغليوم الثاني ورينه بازان وسواهم . وفي مجلده الثاني عن ثلاثة فقط اتخذهم موضوعاً لبحث طريف هم لامرتين . وميشو، وموريس بارس . . . . ولكن هيهات ! انني لي ان اصف ما فيه ! ماذا انقل بل ماذا اهمل ! كلهُ مفيد وكلهُ جميل لذيذ ! لقد ملأ بوردو كتابهُ هذا بمستندات، ومعلومات ثمينة. وبحث في كتب تفيد تاريخ سوريا فائدة جلى . خصوصاً في عهد الصليبيين الذي قلما نعرف عنهُ في الشرق شيئاً إلاَّ ما قرأناهُ في امثال ابن جبير وصلاح بن يحيى وامثالها . جميع هذه سبكها في قالب بليغ يشهي القلوب. وكتابهُ ايضاً ليس كتلك الكتب التي يشحنها ويكدسها اصحابها بالمستندات ، وباسلوب جاف خشن يدعو الى السآمة والملل . فما يقرأ الانسان صفحة منها حتى يلقيها في زاوية النسيان فهي لهُ درس عنيف يستلزم جهداً وعناء وبذل فكر . لا ! فكتاب بوردو كلهُ حياة وبهجة. ان قارئهُ لا يملُّ قط . فبينما هو يتنقل في حدائقه الغناء ويجني فواكه اللذة والابتهاج اذ هو يقطف ازهار الفائدة والاطلاع دانيات حيث شاء وكيف قلبهُ . فالاسلوب سلس ومفيد ومغرٍ . . ورب قائل يقول : انهُ يفيد سوى ابناء الغرب ولكن

رويدك ياصاح ! ففي قولك ما هو بعيد عن الحقيقة. ان فيه فائدة لكل سوري ولبناني ، ولذا يجب ان يقرأه كل سوري . واردد ايضاً انهُ يجب ان يقرأهُ كل سوري صميم ولبناني صميم ويطلع على محتوياته . مهلاً ! على رسلك ما بالي اراك ترمقني بطرفك ثم تغضيه بتهكم وازدراء دع عنك العجب والخيلاء فلست اقول عبثاً . فان فيه من المعلومات النفيسة ما ليس يعرفهُ جل ابناء الشام . وما لا اصفهُ ولا اقدر ان اصفهُ في هذه السطور القليلة ولا تظن اني ابالغ اذا دعوتهُ « معلمةً سورية ولبنانية » فهو للسوريين كنز ادبي عظيم ومعين لا ينضب يرشدهم عما خفي عنهم ويجلي عن اعينهم غشاوة طالما عاقتهم واخفت عنهم اشياء

انا لا نقدر ان نأتي بشيء منهُ هنا . ولا ان نقتطف منهُ شيئاً فانا لا ندري ماذا نقتطف وماذا نترك ! وماهو برحلة تنشر ملخصها ورواية نكتفي بكلمة عنها . بل هو مجموعة ملاحظات وبحوث عن سوريا وكتب عنها وحسبنا ان نقدر سعة جهد المسيو بوردو وبراعة نقده وحذاقته الخارقة في التاريخ التي مكنتهُ من اخراج هذا الكتاب الباهر الجليل والذي هو ملجأ مفيد نافع وجليس لا يملُّ وحسبنا ان نقول عنهُ انهُ اراد في عمله هذا ان يلقي النور على اشياء مخفية ومظلمة واشياء موجودة ولكنها مهملة واحب ارشادنا اليها وتشويقنا وقد ظهر فيهِ عظيم الباحث والتاريخي والاثري

في جبل الدروز

حينما كانت الثورة السورية على اشدها . برز هذا الكتاب الى الوجود ولم يكن بوردو يود نشره لولا حصولها اذ كان يود نشره ضمن تاريخ رحلتهِ الذي يعدنا في مقدمة هذا الكتاب بنشره بعد حين

يحدثنا في كتابهِ هذا اولا عن غليوم ري Guillaume Rey اكبر رحالة اثري دخل حوران في القرن المنصرم ويحدثنا عن كتابهِ الثمينين اللذين نالا شهرة عظيمة في اوربا جمعاء ولدى المستشرقين الاثريين ولعلهما اهم ما كتب عن آثار الافرنج في سوريا وعنوانهما « دروس في العمارة الحربية الصليبية في سورية وجزيرة قبرص » و« المستعمرات الافرنجية في سوريا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » ثم يقتطفات من « رحلتهِ في حوران وشواطئ البحر الميت »

ثم يحدثنا كيف تمكن من زيارة حوران . فقد كان في حفلة اقامها الجنرال غورو ، في قصر الصنور « الذي يشبه قصر علاء الدين » حيث اجتمع رؤساء طوائف سوريا وعشائرها اجمع . فهناك كانت فتيات بيروت ودمشق تمر بجانب عقلاء الدروز واشرافهم. هناك حيث كانت الملابس الرسمية السوداء تتماوج مع العباءات الحريرية ، والكوفيات

الموشاة بالذهب . في وسط هذا المشهد الباهر وقف بوردو يتحادث مع الجنرال غورو الطيب والقومندان دينان Denain ، قائد القوات الجوية ، في جيش الشرق ، وقد أشار عليه غورو بزيارة حوران . لكنهُ اعتذر ان ليس امامهُ غير يومين . اذ بعد يومين سيودع سوريا . وقد نظم برنامج اعماله . ولكن غورو قال لهُ انهُ سيصحبهُ الى غبطة بطريرك الموارنة . فاجاب بوردو « اذن لم يبق سوى يوم » ولكن القومندان دينان سألهُ « أانك جلد على عشرين ساعة ؟ »

— لا شك ألم احارب ؟

— ولكنهُ جلدٌ على كل صدمات النقل ؟ سأذهب غداً في الساعة الرابعة ، لاتفقد فرق البقاع ، واذا سمح الجنرال (غورو) آخذك معي ، وتطير الى جبل الدروز وفي نصف الليل تكون في بيروت . وعليه فبعد غد تذهب ، مع الجنرال الى لبنان

فان غورو بحركة سرور ، البستهُ حلة الشباب . وقال : من المحال ان يزار جبل الدروز من بيروت في اربع وعشرين ساعة

ولكن القومندان دينان اعترض : اهذا ما تقوله ايها الجنرال ؟

— « لكنهُ صعب ! »

وافترق عنهما غورو . واختفى في وسط الامواج الانسانية . وبقي بوردو مع دينان الذي قال لهُ : انك ستبصر كل شيء ، فالطيارة سيدة البسيطة وفي السويداء سيقابلك الترجمان ترنجا Trenga وهو يعرف كل شيء ، عن دين الدروز وعاداتهم ، وسيحدثك عنها . وسيقدمك ايضاً الى « بابا الدروز » وستزور معهُ اثار قنوات الرومانية

ثم تفارقا وما لبث ان قابل بيير ليوتي (ابن اخي المرشال ليوتي) مع الاخوين تارو Tharaud . وتحادثوا معاً عن الدروز ومعتقداتهم وعاداتهم وعن سوريا والحُ . ثم تركَ القصر ، وذهب ليأخذ قسطهُ من الراحة ، قبل ان يأتي دينان . لكنهُ احب ان يعرف ، من هم هؤلاء الذين سيزورهم ، ويجول في بلادهم في الغد ، فتناول كتاباً على طاولته ، اعاره اياها بيير ليوتي المذكور ، وابتدأ يقلبها

انها لعادة حميدة ، ان يعرف المرء شيئاً عن بلاد سيزورها ، وهي عادة ، امتاز بها الافرنج ، وبالاخص الفرنسيس ، ولكن من منا نحن ابناء الشرق يقرأ كتاباً واحداً ، عن بلاد المغرب ، أو فارس ، او اي بلدة يبغي ارتيادها ، لترويح النفس وقضاء عطلته ؟ لا اظن احداً يفعلها ! ان الحكمة تقضي على المرء ، ان يعرف البلاد التي يسافر اليها والشعوب التي تقطنها . وهذه من اسرار تقدم الاوربيين . واستيلائهم على مستعمرات كثيرة

جلس بطالم، ويختار ملحوظات من حوادث ١٨٦٠ المشؤومة وعن الدروز ودينهم، ويا اليها ، واورد جملة منها في كتابه هذا نضرب عنها صفحاً لضيق المقام ، ولشهرتها عند اكثر القراء الكرام . وعند ما انتهى اذا بوقت الرحيل قد ازف . فارتدى لباس ركوب الخيل، واستعدَّ وكانت الساعة الرابعة صباحاً ،فاذا برفيق السفر، قد وافى . فذهبا معاً الى قصر غورو ، فتناولا طعام الفطور في تلك الساعة المتأخرة من الليل او المبكرة من الصباح ، وكانت افواج الراقصين لا تزال تموج في قاعاته

استقلا سيارة . وحيث ان بوردو لم يكن قد ذاق طعم الكرى بعد، لاشتغاله بالمطالعة انتهز الفرصة ونام هنيهة . فلما وصلا رياق استطيا طيارة لدى انبثاق اشعة الشمس الذهبية ، وتكسرها على ثلج جبل الشيخ. يا لهُ من منظر بهيج من الجو ا لبنان بوديته ، وجباله ، وحزونه ، وسهوله ، كالكف المبسوطة تحت بصره !

هاكهما اخيراً مع الترجمان زنجا . ركبوا الخيل وقال لهُ زنجا انهُ سيأخذهُ الى قنوات حيث يسكن زعيم الدروز الروحي فساروا اليها ورأى بوردو كثيراً من آثارها البديعة ووصفها وصفاً شيقاً . ثم انتهى بهم السير الى قصر هذا الرئيس المحترم . واذن لهم بالدخول . فقابلوهُ . وبعدئذٍ قابلوا سليمان الاطرش امير الدروز حينئذٍ

هذا ملخص هذا الكتيب. وقد اودعهُ ملاحظات شتى مفيدة عن الدروز وحوران وتبسط قليلاً في كلامه عن مقابلته لرئيسهم الروحي . وما سألهُ هو . وما اجابهُ ذاك . مما نكتفي بالاشارة اليها . ونحيل القارئ عليه في مكانه

هذا الكتيب ،وان لم يكن ذا شأن كبير كتبه عن سوريا — واهمها وُاد الشرق يملأ نا املاً . وحسبنا انهُ يعلمنا عن عزم بوردو على نشر رحلته الى سوريا ، بعد ان يستوفي جمع المعلومات الكثيرة النفيسة . فهو يريد ان يظهر للغرب والمدنية ، ان الشرق « الذي لا يتغير » قد بدأ بالتغير. وها هو يتماوج ويتقلب ويندفع مع تيار التقدم ، بعد ان ركد القرون في بدء كتابه يحدثنا بقوله : —

« اني اجمع مذكرات رحلتي في سوريا ، وقد تأخرت عن نشرها ،حيث اردت حين رجوعي ان اكملها باستدراكات اكثر قيمة . ان زائر البلاد ليخمد نشاطهُ امام ما كتب عنها طائفة من الرواد المشهورين. لكن الشرق القديم التغير هو اليوم في تقدم وكما تسري الرعشة في ابدان الجياد العربية اذ تشعر بالفضاء الطلق كذلك تسري فيه رعشات طويلة من عام لآخر تكيف الوثائق تبعاً لسير الوقائع وساتي بوثائق لاني اسمع من الشرق اصواتاً تدعوني وها اني اقطع من مذكراتي تباً جولتي الوجيزة في جبل الدروز »